كتابات هامة كثيرة عن الجمعيات العربية وشغبها على السلطة العثمانية واتّصالِها بالشريف حسين وابنه. ثم بحثتُ في أرشيف الجاسوسية المتعلّق بالحرب العالمية الأولى، فعثرتُ على تشابكات بين الجواسيس الأوروبيين ومكاتب مكافحة الجاسوسية العثمانية. هذه الأشياء كلّها، مع ما كان قد تجمّع لديّ عن سفربرلك إجمالاً، هي المادة التي بنيتُ عليها روايتي.

ولكنّ هذا لا يَمْنع أن تضيف شيئًا من ذاتك.

أنا تحدّثتُ عن المادة. أما صياغتها في قالب رواية فأستطيع أن أسمّيها المعركةَ مع المادة لتحويلها من وثيقة إلى حكاية وتحويلِ الشخصيات الأرشيفية إلى بشر. كما استفدتُ من تجارب شخصية وملاحظات اجتماعية وتحصيل ثقافيّ. العمل في النهاية هو مجموع هذا كلّه، مضافًا إليه النكهة الخاصة بأسلوب الكاتب.

هذا الأسلوب بدا متدفّقًا في البداية، ولاسيّما في عدم تدخل الروائيّ أو حتى الراوي أحيانًا. لكنْ شيئًا فشيئًا أخذ السردُ يستسلم لسلطة الرواية.

أحببتُ أن أبدأ بالبطل وهو يتفجّر، وبعد أن أعطيتُه هذه الفرصة كان لا بدّ من أن يتدخّل الراوي ليضعه ضمن إطار الشخصيات الأخرى. وقد كانت الرواية كلُّها تقوم على المزج بين الراوي الذي يتحدّث لكي يُسْلم الخيطَ إلى الشخصية فتنداح بمونولوجها ومعاناتها، ثم يعود فيستلم المبادرة. الشخصيات كلّها لها حظُّها من المونولوج، وكلُّها تَنْتهي إلى الموت تقريبًا، باستثناء الرجل المتفجّر الذي يصل إلى الانسحاق. وأعتقد أنّ قارئًا ما يستطيع بعد قراءة الجملة الأخيرة أن يعود إلى قراءة المونولوج الأول فيجده في معظمه صالحًا لحالة البطل في النهاية.

لا يهمّني القارئ السريع الملل، فالقراءة كالكتابة مسؤولية

ربما لهذا لا نجد عنايةً خاصةً باللُّغة. فثمّة قارئ قد يرى أنّ الجهد اللغويّ غير بارز في الرواية.

أنا أرى العكس. فالجهد اللغويّ لا يتجلّى في تقديم إنشاء بلاغيّ يَدْفع الرواية نحو الشعر، بل في العثور على المفردات الحيّة التي تلائم الشخصيةَ في زمانها ومكانها وحالتها النفسية. ولعلّ البساطة العفوية تَقتضي من الجهد أضعافَ ما يتطلّبه الأسلوبُ البلاغيّ الإنشائيّ الذي يَحْجب الشخصيةَ من خلال وصف الراوي لها أكثرَ مما يَكْشفها من خلال السماح لها بالتدفُّق وفق قاموسها.

لكنْ قد يكون لأدبية اللغة دورٌ في كسر الملل، وهناك من قَد يلاحظ إطالةً في هذه الرواية.

يحقّ لأيّ قارئ أن يرى في الرواية ما يشاء، ولكنْ لا أَعتقد أنّ أدبية اللغة تَكْسر الملَلَ بل تقيم حاجزًا بين القارئ وعالم الرواية. فالكاتب يريد أن يذكّر قارئَه دائمًا بأنّه أديب، وأما العفوية المتعمّدة فهي محاولة لجعل القارئ يَشْعر أنّه لا يَقْرأ بقدْر ما يرى الناسَ ويكاد يرى دموعَهم ويَسْمع تنهُّداتهم. وبدل الضغط على القارئ لإشعاره بأنّني أديب، أريد من القارئ أن يستمتع بالرواية.

لكنّ قارئنا بشكلٍ عامّ سريعُ الملل.

فليكن! القارئ السريعُ الملل لا يعنيني. أنا يعنيني القارئُ المتمعِّنُ الذي يعتبر القراءةَ مسؤوليةً مثلما أَعتبر أنا الكتابة مسؤولية. قرّاءُ التسلية هم الذين يملّون بسرعة. القراء الجادّون لا يَملُّون إلاّ حين تكون الروايةُ رديئةً. والأمر مفتوح!

دمشق

حوار العدد القادم:

■ الروائيّ التونسيّ صلاح الدين بوجاه.